

## إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

إن من المعاني العظيمة التي أكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرّرها في حجة الوداع لزوم تقوى الله عز وجل، والحرص على نيل رفيع الرتب، وعالي الدرجات بتحقيقها لا بالفخر بالأنساب والأحساب، فالكلُّ بنو آدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله عز وجل.

روى الإمام أحمد في مسنده (١) عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

فقرّر صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة العظيمة والبيان البليغ أن التفاضل ونيل الفضل إنما هو بتقوى الله عز وجل لا بأي أمر آخر، كما قال الله عز وجل: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣]). فأكرم الناس عند الله أتقاهم له، أي: أكثرهم محافظة على طاعته، وانكفافاً عن معصيته، إذ التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاءً ثواب الله، والبعد عن معصية الله على نور من الله خيفةً عقاب الله. وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله جلّ وعلا عليم خبير، يعلم من يقوم بتقواه ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم، ويجازي كلّ بما يستحق.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الناس أكرم؟ قال: ((أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابنِ خليلِ الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا))

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))، وفي المسند

للإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ((انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضلته بتقوى)).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فالناس إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، والصور والأموال، والله عز وجل رتب الجزاء والثواب على تحقيق التقوى، والقيام بطاعته سبحانه، فبذلك تثقل الموازين وترتفع الدرجات.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)[المؤمنون:١٠١-١٠٣].

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: ((ومن بطاً به عمله لم يسرع به نسبه))، ومعناه: أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة كما قال تعالى: (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا) [الأنعام:١٣٢]، فمن بطاً به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغ به تلك الدرجات، فإن الله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران:١٣٣]، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)[المؤمنون:٥٧-٦١] [٢].

فهذه الآيات ونظائرها كثير في القرآن تدل أن الفوز برضى الله، والسبق إلى المنازل العالية إنما هو بالأعمال الصالحات، والطاعات الزاكيات، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وفعل طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا أن يعول الإنسان على حسب أو نسب، أو مال أو جاه أو غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((إذ الفضل الحقيقي هو اتباع ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الإيمان والعلم باطنياً وظاهراً، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام والإيمان والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو عجمياً أو أسود أو أبيض ولا بكونه قروياً أو بدوياً)) (٣) اهـ.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لعمرك ما الإنسان إلاّ بدينه

فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلهاً فارس

وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

ويشهد لهذا كله ما في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالحو المؤمنين)) فأخبر صلى الله عليه وسلم عن بطن قريب النسب أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياء، إنما وليه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف، وأن الولاية لا تنال بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له.

ونسأل الله الكريم أن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا من عباده المتقين.

\* \* \*

-----  
(١) المسند (رقم: ٢٣٤٨٩)، قال ابن تيمية في الاقتضاء (١/٤١٢): بإسناد صحيح.

(٢) ينظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/٣٠٨).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٤١٥).